مقاربة في البنية السيكولوجية للزمن "الصابئة" أنموذجاً

An Approach to the Psychological Structure of Time: "AS-Sαabiah" novel as a Model

د.أمينة بنت عبد الرحمن الجبرين - أستاذ مشارك

قسم اللغة العربية- جامعة الملك سعود (المملكة العربيّة السعوديّة- الرياض)

Aminah-123@hotmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/04/03 تاريخ القبول: 2020/04/29 تاريخ النشر: 2020/11/30

ملخص:

يقدّمُ هذا البحث الموسوم بـ" مقاربة في البنية السيكولوجية للزمن "الصابئة" أنموذجاً"، دراسةً لمنجزٍ سرديٍّ نسائي سعودي تلك هي رواية "الصابئة" للروائية السعودية "حنان القعود".

يحضر الزمن في الرواية بوصفه أحد أهم العناصر المشكّلة للسرد الروائي، ونظراً لكون النص الروائي نصّاً حياتياً، فذلك يعني أنّه نصٌّ زمني. ويشكل الزمن النفسي أحد أهم أنماط الزمن ارتباطاً وتجسيداً للحالات الشعورية، وانطلاقاً من ذلك، يسعى هذا البحث إلى دراسة الزمن النفسي في رواية "الصابئة"، من خلال الوقوف عند الدلالات الشعورية للذات وسط تداخل الأزمنة وتشابكها، كما يسعى أيضاً إلى الكشف عن تحوّلات الذات وتغيّراتها وفقاً لتحوّلات الزمن، ويسعى أيضاً إلى رصد سلطة الزمن وهيمنته على الذات، وانعكاس ذلك كله على الحالات الشعورية والوجدانية لها.

الكلمات المفتاحية: البنية، مقاربة ،الزمن ، الصابئة، النفسي.

Abstract

This research entitled "**An Approach to the Psychological Structure of Time: "AS-Sαabiah novel as a Model**" studies the Saudi feminine narrative achievement of Hanan Alqu-oud's, the Saudi novelist, novel: "*AS-Sαabiah* ".

Time is present in the novel as one of the important elements which form a narration. The fact that the narrative text is about life means it is temporal. Psychological time is one of the most important time patterns that relate to and embody consciousness states. Hence, based on this, this research seeks to examine the psychological time in the novel: "*AS-*

Sααbiah" through exploring the consciousness significances of the self amid the overlapping and intertwining of times. Moreover, it seeks to reveal the transformations and changes of the self along with the transformations of time. It also seeks to monitor the power of time and its dominance over the self, and how they affect its affective and consciousness states.
key words: **Structure, Approach, Time, AS-Sααbiah, Psychlogical.**

مقدمة:

يحضر الزمن في الرواية بوصفه أحد أهم العناصر المشكّلة للسرد الروائي، وهو، على أهميته، ليس له وجود مستقل في الرواية، وإنما يتخللها كلها. "ويتداخل الزمن ويتغير بالتقدّم والتأخر عبر المسار السردي، ولعله في كل حال يترك فيها موقعه لِصنْوه تتغير دلالته الحقيقية، كالماضي الذي يذر موقعه للمستقبل، والحاضر الذي يدع مكانه للماضي، والمستقبل الذي قد يتقدم فيتصدّر الحدث حالاً محل الماضي". [1]

وبرزتْ أهمية الزمن في الدراسات النقدية الحديثة بعد تصريحات بيرسي لوبوك Percy Lubbock في كتابه The Craft Fiction الذي أشار فيه إلى صعوبة الزمن في النص السردي أكثر من أي شيء آخر؛ إذ لا يمكن طرح الزمن أو تحسس أبعاده ما لم يكون "باستطاعتنا أن نشاهد في شكل الرواية صورة للاندفاع الدائري للزمن". [2]

ونظراً لكون النص الروائي نصّاً حياتياً، فذلك يعني أنّه نصٌّ زمني، يمكن تحديد حركته الكرونولوجية من خلال بدء الراوي بعملية السرد والانتهاء منه، حيث يروي فترة تاريخية ما متخيّلة تجري حوادث الرواية فيها بصورة تشكّل البناء الزمني للنص.

وقد تطورت الرواية "من المستوى البسيط للتتابع والتتالي إلى خلط المستويات الزمنية من ماضٍ وحاضر ومستقبل خلطاً تاماً، ممّا أدّى في الرواية الجديدة إلى تداخل وتلاحم بين المستويات الثلاثة"[3] ومن شأن هذا التداخل أن يفضي إلى كسر الكورونولوجية الزمنية.

ويتحقق التداخل الزمني الذي ينتج عن تكسير خطّيّة مسار السرد، من خلال حركتين أساسيتين: الاسترجاع والاستباق، وهي ما سمّاها جيرار جينيت بـ"المفارقة السردية". [4]

غير أنّ ما ينبغي الإشارة إليه أننا لن نتناول هاتين التقنيتين في قراءتنا للمنجز السردي "الصابئة"[5]، نظراً لتركيز السواد الأعظم من الدراسات الحديثة حول الزمن على هاتين التقنيتين إن لم يكن جميعها، لذا ارتأينا تسليط الضوء على الزمن وفاعليته في المنجز السردي موضوع الدراسة، من خلال الوقوف عند سيكولوجية الزمن، ودوره في تجسيد الحالات الشعورية للذات الساردة، ورصد تحوّلاتها وتغيّراتها من خلال التحوّلات الزمنية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالذات.

"ويكاد يسيطر الزمن النفسي على جلّ تشكّلات الزمن في الرواية السعودية، وهو بذلك حامل لخطاب ما وليس بناء خالياً من الدلالة والقيمة الوظيفية لهذا الشحن العاطفي تجاه الزمن" [6]، ويشكل الزمن النفسي أحد أهم أنماط الزمن ارتباطاً وتجسيداً للحالات الشعورية، ويصور غالباً "انسحاب الذات إلى ذاتها، وشعورها بالعجز والضياع أمام تداعي الأحداث الماضية والمستقبلية عليها في اللحظات الآنية". [7]، ونتيجة لذلك تتداخل الأزمنة وتلتبس، فتفيض المونولوجات، وتكثر المناجاة الذاتية، وتفقد الذات حلقة التواصل بينها وبين المجتمع، فتتقوقع على نفسها، وتنطوي على ذاتها "فيحل الزمن النفسي أو الشعوري محل الزمن الواقعي أو الحقيقي" [8] ليكشف عن أعماق الذات، ويعبر عن أزمتها الشعورية الداخلية.

انطلاقاً من ذلك، يسعى هذا البحث إلى دراسة الزمن النفسي في رواية "الصابئة"، من خلال الوقوف عند الدلالات الشعورية للذات وسط تداخل الأزمنة وتشابكها، كما يسعى أيضاً إلى الكشف عن تحوّلات الذات وتغيّراتها وفقاً لتحوّلات الزمن، ويسعى أيضاً إلى رصد سلطة الزمن وهيمنته على الذات، وانعكاس ذلك كله على الحالات الشعورية والوجدانية لها.

وتعود أهمية الدراسة إلى سياقها الزمني؛ حيث تغطّي الفترة التاريخية ما بين عام 1984م وتنتهي 1996م، وهي من أكثر الفترات توتراً في تاريخ الخليج العربي؛ حيث ضمّتْ حرب الخليج الأولى والثانية، وتبعات هاتين الحربين على المجتمع الخليجي، من انتشارٍ للهجمات الإرهابية في العمق الخليجي، وانقسام المجتمع ما بين المؤيد والمعارض للدخول الأجنبي للجزيرة العربية، وأثر ذلك كله على المكوّن النفسي والفكري للإنسان الخليجي. كما تعود أهمية الدراسة أيضاً إلى كونها أول دراسة تتناول المنجز السردي "الصابئة"، فلم أعثر على مقالٍ أو دراسة أو قراءة للرواية حتى كتابة هذا البحث.

وسننتهج المنهج التحليلي الذي يقوم على تحديد خصائص الظاهرة، ووصف طبيعتها، ونوعية العلاقة بين متغيراتها، وما إلى ذلك من جوانب تسهم في سبر أغوار الظاهرة، والكشف عن تمفصلاتها في المدونة موضوع الدراسة، كما سننتهج المنهج النفسي الذي يعتمد نظرية التحليل النفسي، التي تقوم على تفسير السلوك البشري، والمستويات النفسية العميقة للشخصيات في النص.

وتحضر "الصابئة" بوصفها منجزاً سردياً تنكسر فيه كورونولوجية الزمن، وهي منجَز نسائي، كتبته الروائية السعودية حنان القعود. [9]

ملخص الرواية

"نجلاء" فتاة سعودية تتعرّف على شاب سعودي خلال فترة ابتعاثها إلى أمريكا اسمه "يوسف" تتوطد العلاقة بينهما، ليكتشفا أنّ زواجهما بات أمراً مستحيلاً، لعدم توافقهما في كفاءة النسب، إلاّ أنّ "نجلاء" تصرّ على الزواج من "يوسف" دون علم والديها، فيلبّي "يوسف" رغبتها، وفي إحدى زياراتها للسعودية، يكتشف الأب خبر زواجها، فيمنعها من العودة إلى "أمريكا".

تعمد الروائية إلى كسر كرونولوجية الزمن في الرواية، فتبدأ أحداث الرواية من الزمن الحاضر، حين تجد "نجلاء" نفسها تحمل ذاكرة مفقودة، ومسؤولية توأمين ذكرين، لتُروى لها حكاية حادث وقع لها بصحبة أمها التي أُقعِدتْ عن الحركة بعده، وأنجبتْ الطفلين، في حين فقدت "نجلاء" ذاكرتها. تبدأ بعدها رحلة "نجلاء" نحو استرجاع الذاكرة، لتكتشف أنّ الطفلين لم يكونا سوى ابنيها اللذين أنجبتهما من زوجها "يوسف"، فتسير الأحداث في محاولات "نجلاء" البحث عن تفاصيل الحقيقة، والبحث أيضاً عن زوجها "يوسف" الذي تكتشف أنه قُتِل في عملية إرهابية في الرياض كان هو ضمن منفذيها.

يحضر الزمن في رواية "الصابئة" بوصفه زمناً نفسيّاً، تعيشه الذات، ليكشف عن تشظّيها وبعثرتها، فضلاً عن رصد تحوّلاتها النفسية، ودلالاتها الشعورية، وتواجه الذات الزمن بملامحٍ متباينة تعكس بها تباين الزمن وتبدّلاته، من هذه الملامح: الوعي بالتحوّل؛ وهو على جانبين: وعي الذات بتحوّلها، ووعيها بتحوّل الآخر، وتشظّي الذات والزمن، ومواجهة الذات للزمن وسؤال الهوية، وأخيراً حضور الزمن وإيقاع الجنائزية.

وسنشرع في الحديث عن هذه الملامح بشيء من التفصيل.

1. الوعي بالتحوّل

1-1. تحوّل الذات

"في السنوات الخمس الأخيرة تغيّرت عاداتي إلى حدٍّ كبير، أو هذا ما أستطيع تذكره حقيقة. قيل لي بأني أصبتُ جرّاء الحادث بفقدان ذاكرة تراجعيّ، لا أعلم ماهيته جيداً، وكثيراً ما قمتُ بالقراءة والسؤال عن هذا النوع من فقدان الذاكرة بيد أني ما زلت أشعر بالتشتت، فأسئلتي كثيرة تملأ رأسي وتنخر دماغي رغبةً في البحث عن إجابات عمّا يدور في داخلي". [10]

تبدو الذات/نجلاء في هذا المشهد على وعيٍ كاملٍ بالتحوّل، وهو تحوّلٌ ارتبط بالزمن من جهة: **"في السنوات الخمس الأخيرة تغيّرت عاداتي إلى حدٍّ كبير"**[11]. وارتبط من جهة أخرى بالتغير الفسيولوجي للذات من خلال تحوّل الذاكرة إلى ذاكرة حاضرة، لا تعي الماضوية وأحداثها: **"قيل لي**

بأني أصبتُ جرّاء الحادث بفقدان ذاكرة تراجعيّ".[12] لم تكن **"السنوات الخمس الأخيرة"**[13] في حياة الذات محكومة بمعايير الزمن الموضوعية الخارجية؛ بل كانت تشي بزمنٍ ذاتي سلطوي، يتواطأ مع الذاكرة، ليحيل السنوات الخمس إلى سنواتٍ طويلة ممتدّة، تقع تحت ربقة التشتت والتشظّي؛ حيث تراكم الأسئلة وكثرتها، وإلحاحها الدائم للوصول إلى قرار.

والوعي بهذا التحوّل الزمني يعكس مدى إدراك الذات بأبعاد الزمن، وهو إدراك استبطاني نفسي قوامه الإلحاح والمناجاة، والحفر في ماضٍ معتم، يقابله حاضرٌ مشتّتْ: **"أو هذا ما أستطيع تذكره حقيقة"، "قيل لي"، "لا أعلم ماهيته جيداً"، "ما زلت أشعر بالتشتت"**،[14] أمام هذا الماضي المجهول، تنحسرُ مساحة الحاضر، ويتقلّص امتداده، ليبقى عالقاً بين أمرين؛ إمّا التلاشي في الماضي المجهول، أو انتظار انكشافه وسفوره، "وهي مسألة تعدّ مفتاحاً لفهم معاناة الشخصية في علاقتها بذاتها، وإشارة إلى التقهقر الذاتي الذي تتعرض له في الواقع".[15]

2-1. العلاقة مع الآخر

ويزداد الوعي بتحوّل الزمن حين يتعلّق الأمر بالعلاقة مع الآخر/الحميم؛ حيث تعي الذات/نجلاء التحوّل الذي اعترى علاقتها بأبيها، فتسترجع الماضي، وتستحضر واقع الحاضر على وجه المقارنة: **"ثمّة ما يقلقني حياله، فشعوري تجاهه قد تبدّل؛ هناك فجوة كبيرة لا أعلم سببها، فلا أنا التي أتقرّب منه، ولا هو الذي يحاول جذبي، لم أعد طفلته المدللة كما كنت، فرغم هذا الاهتمام إلاّ أني أشتاق لوالدي السابق الذي تجمعني به ذكرى طفولتي".**[16]

لم يكن استرجاع الذات لماضيها مجرد عملية زمنية، تفتح من خلالها عالمها الذاكري لتستدعي الماضي عبر الحاضر؛ بل كان وعياً كاملاً للذات بالتحوّل العلائقي، الذي كان امتداداً للتحوّلات الحياتية الذاتية بأكملها.

ينفتح المشهد على زمن نفسي داخلي، يؤججه زمنٌ خارجي، قائمٌ على مفارقةٍ زمنية، تحاول الذات كشفها وسبر أغوارها، وهي مفارقة تتكئ على الدهشة والتحسّر: **"شعوري تجاهه قد تبدّل"، "هناك فجوة كبيرة لا أعلم سببها"، "لا أنا التي أتقرّب منه، ولا هو الذي يحاول جذبي"، "لم أعد طفلته المدللة"**،[17] مثل هذه الإشارات التي تحيل إلى ذاتٍ مأزومة، تحيل، في الوقت نفسه، إلى حضور زمنيٍ ممتد، مسكوناً بالدهشة والقلق والحرقة والشوق: **"أشتاق لوالدي السابق الذي تجمعني به ذكرى طفولتي".**[18]

أدّى حضور هذا الشوق المصحوب بالحرقة والدهشة، إلى غياب الزمن الحاضر، وحلول الماضي البعيد، الزّاخر بالذكريات البهيجة. تسعى الذات إلى إعادة بعث هذا الماضي وإحلاله محل الحاضر المشحون بالواقع المأزوم، من خلال محاولة الانفكاك من سلطة الحاضر وهيمنته، والتعلّق بمرحلة الطفولة البعيدة العالقة في الذاكرة المتعبة.

لم تكن مشاعر الدهشة والقلق من الواقع الحاضر، سوى انعكاس لزمنٍ سيكولوجي قلق؛ فالفجوة الكبيرة هي فجوة زمنية يتداخل فيها الحاضر بالماضي ليحيل كلٌ منهما إلى الآخر، الأمر الذي يكرّس من سلطة الزمن واستبداده، أمّا ذبذبة العلاقة بين الذات والآخر/الأب، حيث النفور والبعد، فتعكس التذبذب الزمني الذي تعيشه الذات؛ حيث الماضي البعيد والمبهج، الذي يبعثه الشوق، والحاضر المأزوم، الذي تعيشه الذات بكل تمفصلاته.

غير أن مشاعر الشوق التي يؤججها الحنين إلى الماضي والطفولة، ما لبثتْ أن تحوّلتْ بتحوّل الزمن نفسه؛ فلم يعد الماضي البعيد هو الزمن المفعم بالطفولة السعيدة، حيث تحوّل وتكشّف الماضي، وانجلى عن أحداثٍ أخرى أفضتْ إلى اضطراب علاقة الذات بالآخر/الأب: "**ما إنْ وقعتْ عيناي عليه، لم أرَ فيه والدي الذي عرفت وأحببتْ، بل تجاهلتُ كل سنوات حنانه الممتدّة من طفولتي وحتى الآن؛ قهري لما حلّ بي، وابناي حُجبا عن عيني، مكانته كأب، وعن قلبي، شعوري كابنة**".[19]

يحضر الماضي في هذا المشهد بوجهٍ آخر، استدعاه الحاضر نفسه، ورسّخ حضوره، حيث استحال إلى زمنٍ نفسي متوتر، مسكوناً بالحسرة والقهر، فاختلطتْ الرغبة في استعادة أيام الطفولة، بالرغبة بالانتقام واستعادة المسلوب، حيث انثالتْ الصور من الذاكرة متداخلة ومشوّشة، لتعيش الذات في صراعٍ نفسيٍ مع الزمن، وتعلن، أخيراً، تناسيها للجزء الآسر من هذا الماضي:"**تجاهلتُ كل سنوات حنانه الممتدّة من طفولتي وحتى الآن**".[20]

لم تكن سنوات عمرٍ بقدر كونها سنوات حنان، ولم تكن مرحلة الطفولة سوى مرحلة تكشّفٍ وجلاء لحاضرٍ مأزوم. فرض الماضي سلطته على الذات، وحضر بتفاصيله كافّة؛ الآسرة، والحزينة، لتعيش الذات في اضطرابٍ يمتدّ بامتداد الإحساس به، والقلق حياله.

إنّ تمعّنْ الذات في الماضي المنبثق من الحاضر، وإدراكها لأبعادَه، وتوثيق معرفتها به، دفعها إلى البحث عن طرائق النجاة منه، وسبل تقويمه وإصلاحه ومواجهته. إنّ مواجهة الذات للزمن الماضي، وحرصها على استشراف المستقبل من خلاله، وانفتاح الذاكرة على الحاضر الذي يمثّل الواقع المعقّد، أدّى إلى تضاؤل إحساسها بالزمن، فهمّشتْ الماضي والحاضر على حدٍّ سواء: "**من طفولتي وحتى الآن**"،[21] لتستشرف المستقبل خلال مساحات لا متناهية من الديمومة والتعاقب. تحوَّلَ إحساسُ الذات بالزمن، وتبدَّلَ شعورُها حياله، فتقلّص وانكمش الزمن من مرحلة الطفولة حتى لحظات الحاضر الآنية في بوتقةِ الإنكار والتجاهل: "**ما إنْ وقعتْ عيناي عليه، لم أرَ فيه والدي الذي عرفت وأحببتْ**".[22] قدّم هذا الشعور النفسي بالزمن مفارقة زمنية، تحضر وتغيب حسب دواعي الحاجة إليها داخل المنظومة الحكائية؛ ففي حين بلغ الشوق منتهاه إلى ماضي الطفولة البعيد مع الآخر/الأب: "**أشتاق لوالدي السابق الذي تجمعني به ذكرى**

طفولتي"[23] تحوّل الزمن بتحوّل الآخر/الأب، لينبثق عنه زمنٌ نفسي مأزوم، ويتحوّل الشوق الملتهب إلى برودٍ تولّد عنه نفور وجفاء: **"كنتُ أتساءل طيلة هذه السنوات عن سبب البرود الذي يغلف علاقتي به، رغم ماضينا الدافئ، والآن فقط عرفت، لم أسامحه يوماً ولم يغفر لي".**[24]

يشي هذا التناظر الزمني بين الماضي الدّافئ والحاضر البارد بواقعٍ بطيء، مثقلٍ بالهم والحزن العريض، "فيتحول الزمن إلى ومضات يتحرك فيها وعي الساردة نحو حقيقة الزمن"[25] صنعَ هذا الواقع زمناً ذاتيّاً خاصاً، يتلون تبعاً للإيقاع النفسي للذات، حتى دخل هذا الزمن في حالةٍ من التجاذب النفسي الذي يعكس بصورة أو بأخرى واقع الذات القَلِقْ.

لم يقتصر التحوّل السيكولوجي للزمن على العلاقة مع الآخر/الأب، بل امتدّ هذا التحوّل إلى العلاقة مع الآخر/الأم: **"أتأمل وسادتها والنقوش المرسومة على غطاء سريرها، أحاول تمرير أصابعي عليها كما كنت أفعل في صغري كلما دخلتْ غرفتها وهي تصلّي، وانتظرتها في المكان ذاته، لم أكن أفعل هذا إلاّ إذا كان لديّ طلبٌ ما، كبرتُ وصارتْ الطلبات مواضيع تكبر أهميتها مع سنوات عمري، ومنذ الحادث لم أنتظرها، ولم أعد أطلب منها شيئاً".**[26]

يعكس هذا المشهد بوحاً داخلياً تواجه الذات نفسها من خلاله في إطار الفضاء والأحداث، الأمر الذي يجعل المشهد يأخذ منحىً درامياً متصاعداً على امتداد العلاقة مع الآخر/الأم، ويبقى للزمن حضوره وسلطته، ذلك الزمن المستغرق في التحوّل من حالة القيد الحميم المنسحب إلى الماضي البعيد، إلى حالة الانفكاك القسري في الحاضر الخافتْ.

يشي هذا القيد بتعلّق الذات بالآخر/الأم، وهو قيد فرضه الزمن، ووقعتْ الذات تحت سلطته، تسترجعه باشتياقٍ وتحسرٍ محموم، غير أن ماضي الطفولة تحوّل إلى حاضر غامض، أفضى إلى صمت الذات، حيث تواطأ الزمن مع الصمت الثقيل ليترك أثره على الذات، تقاومه باستدعاء الطفولة: **"لم أكن أفعل هذا إلاّ إذا كان لديّ طلبٌ ما، كبرتُ وصارتْ الطلبات مواضيع تكبر أهميتها مع سنوات عمري، ومنذ الحادث لم أنتظرها، ولم أعد أطلب منها شيئاً".**[27]

لا زال الماضي يستعيد نفسه، تتجاذبه صورٌ من الحسرة والاشتياق، رسمتها الذات بتأملاتٍ تعكس وعيها الداخلي بزمنها في ظل تجربتها الحياتية الجديدة، "حيث يمكن أنْ يكون ثمّة تكامل وجودي إنساني"[28]، تحاول الذات خلال هذا التأمل الزمني إعادة بناء اللحظة نفسها: **"أحاول تمرير أصابعي عليها كما كنت أفعل في صغري".**[29]

تستشعر الذات وطأة هذا التحوّل الزمني، وتدرك يقيناً أنّ زمنها الحاضر مغاير، لا شك، عن زمنها الفائت ومباينٌ له؛ فما قبل الحادث شيء، وما بعده شيءٌ آخر "وهذا التحييد يشير إلى

سباقٍ لا هوادة فيه مع الزمن"[30]، لذا فهي لا تكف عن استدعاء الماضي، والإلحاح على حضوره، والوقوع في شرَك الذاكرة هروباً من الواقع الملغز.

تدخل علاقة الذات بالآخر الحميم/الأب والأم في حالة من النوستالجيا، حيث تصنع الذات هذه الحالة العاطفية كآلية دفاعٍ سيكولوجية، فتستحضر ذكريات الماضي الدافئة لتواجه بها برودة الحاضر، الأمر الذي يجعلها في تحدٍّ مع الحاضر الغريب. وتتكئ الرؤية السردية في المنجز السردي "الصابئة" على علاقة جدلية بين زمنين؛ الحاضر الآني، والماضي المسترجع عبر تداعيات الذاكرة، فالأول مرهون بموضوعية الزمن وأحكامه، والثاني محكوم باستبطانات الذات الساردة التي لا تخضع لكرونولوجية الزمن.

2. تشظّي الزمن/تشظّي الذات

لم تضطلع الشخصية الرئيسة "نجلاء" وحدها بعملية السرد في المنجز السردي "الصابئة"؛ بل تعددتْ الأصوات، وشاركتْ الشخصيات الأخرى في العملية السردية، وقد اكتمل بناء المنجز السردي "الصابئة" في خمسةٍ وعشرين مشهداً، حملَ عنوان المشهد الواحد: اسم الشخصية الساردة، وعنوان يختزل أحداث المشهد، والعام الذي وقعتْ فيه أحداث المشهد.

شكّلتْ هذه العناوين عتبات إشارية اكتسبتْ خصوصيتها من التركيبة الاجتماعية والوجودية للشخصيات نفسها، وتشظّتْ حبكة الرواية إلى حكايات تعاقبتْ على سردها أصوات الشخصيات المتعددة والمختلفة، وهو أمرٌ أفضى إلى تداخل الزمن السردي، حيث تتشابك البنية السردية وتتقاطع؛ فيبدأ السرد بالحاضر، ثم يرتد إلى الماضي، ثمّ يعود للحاضر مرة أخرى، وهكذا تظل الرواية في مراوحة بين الأزمنة، فتفتقد لذلك تنامي الحدث بصورة تتابعية نتيجة التشابك، وبالتالي خضعتْ الحركة الكرونولوجية الزمنية للكسر الذي أفضى إلى التشظّي والتبعثر.

عكس هذا التشظّي الزمني في الرواية حال التشظّي والتوتر التي تعيشها الذات مع واقعها، وهذا بدوره سمح بترسّخ توتر درامي صعّد من التشظّي النفسي للذات في مقابل تشظّي الزمن: **"أيّ ماضٍ تركته خلفي؟ غدا كاللعنة التي لا تنفك تطاردني، إني أتشظّى فعلياً، جزء مني يتوق لمعرفة الحقيقة والتطهر من كل ما قد شابني منها، وجزء آخر يهيبني من هول ما قد أعرفه عنها، فإلى أي شطر أنقاد يا ربي؟"**.[31]

تعي الذات أنّ المأزق مأزقٌ زمني، تتشظّى خلاله بين الماضي والمستقبل؛ ماضٍ غيبي، يواصل تعقّبها، حتى **"غدا كاللعنة"**،[32] تتلهّف الذات لكشف غموضه وأسراره للوصول إلى الحقيقة

الملبسة، ومستقبل مظلم معتم، تهابه الذات وتخشى انكشافه، ووسط ذلك كله، تحضر الذات بوصفها ذاتاً واعيةً ومسكونة بالتشظي النفسي: **"إني أتشظّى فعليّاً"**[33] الذي يجسد تشظي الزمن نفسه.

إنّ بناء الزمن في الرواية بصورة متشظية يجسد صورة الذات بتداخلها وقتامتها؛ فلا حضور للماضي ولا للمستقبل ولا الحاضر أيضاً بشكل تتابعي أو جدلي، وإنما تتشابك الأبعاد الزمنية وتلتبس.

لم يكن ماضي الذات مخزوناً للذكريات السعيدة أو حتى المؤلمة، تستدعيها الذات متى شاءتْ؛ بل تحوّل إلى "لعنة" تطارد الذات وتستحثها على نبشها وفضح مكنونها، تحاول الذات التصالح مع الزمن، لكشف الحقيقة، والوصول إلى التطهّر، غير أنّ هذا الزمن حوّلها إلى طريدة، من خلال ترسيخ حضوره وإثباته بإلحاح، وسط غياب له في الوقت نفسه داخل ذاكرة الذات المتعبة، الأمر الذي أفضى إلى تشظّي الذات وسط هذا الغياب المعتم والحضور المُلِحْ.

ويستمر تشظّي الذات الذي يجسّد الماضي بطولته، فهو نقطة البداية لهذا التشظّي ومنبعه الذي لا ينضب، تنثال صوره الضبابية بهيئة مجهولة لا تستطيع الذات فهمها أو فك رموزها: **"لا أعلم ماهية الحقيقة التي أبحث عنها، ولا أعي لونها، أشعر بأنّ خلف هذا السواد ظلامٌ حالك، لكنه طريقٌ لا عودة منه، فحاضري بائس، ومستقبلي باهتْ، لن أكتمل ما دام لي ماضٍ جمله ناقصة بلا نقط، والكثير من حروفه قد تلاشتْ"**.[34]

يتجلّى زمن الماضي بوصفه الأكثر إثارة للجدل في الرواية، نتيجة لانثيالات الذاكرة المكتنزة بالأحداث المتراكمة والمتعبة، ونتيجة الغياب النفسي للذات، الذي كان أشد وطأة، على الرغم من حضور التفاصيل الحياتية الصغيرة التي اعتنى بها النص تأكيداً على الحضور الجسدي للذات.

تحضر الذات برغبةٍ تعتمل في النفس بالتشيؤ **"لن أكتمل"**[35]، وهذه الرغبة انبثقتْ من **"ماضٍ جمله ناقصة بلا نقط، والكثير من حروفه قد تلاشتْ"**[36]، إنه استسلام أمام الفقد والغياب؛ الفقد الذي أحال الحاضر إلى البؤس، والمستقبل إلى صورة ضبابيةً باهتةً لا روح فيها، والغياب الذي تجسّد في الماضي الذي حضر ناقصاً مبتوراً.

لم يكن حضور الماضي إلاّ غياباً، حيث يشي هذا الحضور بالنقص والتلاشي، وهو حضورٌ يعكس الواقع السيكولوجي للذات؛ ذلك الواقع الموشوم بالظلمة والعتمة: **"أشعر بأنّ خلف هذا السواد ظلامٌ حالك، لكنه طريقٌ لا عودة منه"**[37]، كما أنّ هذا الحضور المبتور لزمن الماضي شكّل هيمنة على الدورة الحياتية للذات؛ حيث انعدم تواصل الذات مع الرّاهن والواقعيّ، وأصبحت خارج زمنها النفسي، الذي اكتسى باليأس والنقص واستحالة الاكتمال،

فـ"الواقع غير المأمول وتلاشي الأحلام وضياعها"[38] يفضي إلى أن يستحيل البوح النفسي إلى بوحٍ جنائزي، يتجسد في تكريس البعثرة والتشظّي واستحالة الالتمام.

يتكرّس هذا التشظّي النفسي حين تعي الذات معركتها مع نفسها التي هي في أساسها معركة مع الزمن، خاصة إذا كانتْ معركة مجهولة، لا بداية لها ولا نهاية: "**أصعب معركة قد يخوضها الإنسان هي معركته مع ذاته، والأصعب من هذا عندما يجهلها، فلا يعرف كيف يحترس، وبماذا يحمي نفسه، وإنْ خسر أو انتصر فلا رابح في هذه الحرب. اغرورقتْ عيناي بالدموع وشهقتُ حتى انتفختْ رئتاي، وزفرتُ بكلمة واحدة تبعثرتْ معها أوراق الماضي التي أحملها، فقلتُ له: ساعدني يا دكتور، أنا حقاً تائهة، قل لي هل ما كتب في هذه الأوراق صحيح؟ وإنْ لم يكن، فأين الخطأ؟ ماذا أفعل، أكاد أُجن؟**".[39]

ينقل لنا المشهد صورة من صور اغتراب الذات عن نفسها، جرّاء انسلاخها من ذاكرتها، ودخولها في صراعٍ نفسيٍ أفضى إلى تشظّيها: "**والأصعب من هذا عندما يجهلها، فلا يعرف كيف يحترس، وبماذا يحمي نفسه**"[40]. تستدرج الذات ماضيها من خلال التذكر، وأحداثه الغيبية لا زالتْ راسخة في قلبها وفكرها، غير أنّ هذا الاستدراج يبينُ عن ذاتٍ متشظّية، تدور في حلقة خاوية مع نفسها ومع الزمن: "**أنا حقاً تائهة**".[41]

يطارد الزمن الذات ويتشابك مع إحساسها، فتستشعره لكنّها تعجز عن تحديد كنهه، وتزداد كثافته، كلما زادتْ حدّة تفاعلها معه، وانفعالها بمعطياته، فالزمن الحاضر انقسم وتحوّل إلى شظايا، كل شظيّة تنفتح باتجاه مختلف، وإنْ كانت كلها تصبُّ في قالبٍ من التشظّي النفسي؛ اتجاه تخوض معه الذات معركتها المجهولة مع نفسها ومع الزمن، واتجاه يفضي إلى انفعالٍ واهنٍ وعميق، يتشكّل في صورةٍ من الاحتقان النفسي: "**اغرورقتْ عيناي بالدموع وشهقتُ حتى انتفختْ رئتاي**"[42]، واتجاه تتداخل فيه الأزمنة وتختلط فيه مطالب الذات، فتتشظّى مع تشظّي الزمن، من خلال محاولة التحقق من إفرازات الماضي: "**هل ما كتب في هذه الأوراق صحيح؟**"[43] والخوف من الحاضر المعتم؛ "**ماذا أفعل، أكاد أُجن؟**".[44]

يحضر ملمح التشظّي بوصفه سمةً على الذات المسكونة بالرغبة في الانعتاق من القلق والحيرة، ومواجهة صوت الماضي الذي يطاردها، وصوت الذات نفسها وهي تحاول الخلاص من حصار الذاكرة التي تلعب دوراً رئيساً في تشظّي الزمن إلى درجة تلاشيه أمام تعاظم مأساوية اللحظات الحاسمة في استمرارية الحياة.

3. مواجهة الزمن وسؤال الهوية

كان لتلك الانكسارات التي اشتعلتْ داخل الذات/نجلاء دورٌ في تجديد الذات، ورغبةٌ لديها في نزع القناع عن الحقيقة المستترة. تقف الذات ثائرة في وجه الزمن، تطرح عليه الأسئلة، وتعاتبه، وتتحدّاه: **"كان عليّ الوثوق بذاكرتي من اليوم الأول والاستجابة لطرقاتها، فلم يعد هناك داعٍ للخوف، عليّ التوغل بكل شجاعة والبحث عمّا فقدته مهما بلغتْ صعوبته، مهما جرحتني حدّته، أعلم بأنّ ذاكرتي لن تطرد كل هذه السنوات عبثاً، ولن تصير إلى ما صارتْ إليه دون وجود صدع تسرّبتْ منه تلك الأعوام، أين يكمن الصدع؟ وعلى أي جدار هو؟ ...سألعب دور المحقق من اليوم، وسألحق بكل حدثٍ يقودني إلى الماضي المفقود".** [45]

يعكس إلحاح الذات على التّقدّم والاكتشاف، رؤيتها الفكرية وعزمها الثّوري المتمثّل في تجاوز مرحلة العجز والخنوع والاستسلام، المتمثّلة في الحاضر الرتيب، الذي وصل إلى درجة التبعثر والتشظّي حتى فقدتْ الذات السيطرة عليه.

تواجه نجلاء الزمن بقوة وتحدٍّ، فتتخذ من الحاضر طريقاً للوصول إلى **"الماضي المفقود"**[46]، ذلك الماضي الذي هيمن حضوره على الذات، الأمر الذي استحثّها للبحث عنه وسبر أغواره من خلال الحاضر الكئيب، الذي أفضى برتابته وإيقاعه الزمني البطيء إلى يقظة الزمن الداخلي للذات لتعيش في مناجاةٍ نفسية دائمة، وحوارٍ داخلي مع نفسها، "إنّ الزمن الداخلي هو المنقذ لإخراج الشخصية من محاصرة الزمن التسلسلي لها، والتعبير عمّا يجيش في نفسها بكل حرية، دون إحساس بالحواجز والأبعاد الزمنية". [47]

إنّ هذا التنازع على مساحة الحضور بين الحاضر الرتيب والماضي المستتر، أَبَانَ عن مواجهة الشخصية لذاتها من خلال مواجهة الزمن؛ ذلك عبر المتوالية المونولوجية للذات التي أفضتْ إلى بلورة الأحداث في زمنها تعاقبياً.

تبدأ المواجهة بين الشخصية وذاتها بلومها أولاً على الخنوع لزمن الحاضر والاستسلام لمعطياته وعدم الاستجابة لنداء الذاكرة: **"كان عليّ الوثوق بذاكرتي من اليوم الأول"**[48]، ثم تعلن الشخصية المواجهة بصرف النظر عن العواقب: **"عليّ التوغل بكل شجاعة والبحث عمّا فقدته مهما بلغتْ صعوبته، مهما جرحتني حدّته"**[49]، ثمّ يبدأ تكوّن الوعي بالمؤامرة لديها؛ **"أعلم بأنّ ذاكرتي لن تطرد كل هذه السنوات عبثاً، ولن تصير إلى ما صارتْ إليه دون وجود صدع تسرّبتْ منه تلك الأعوام"**[50]، ثمّ تنثال التساؤلات حول المصدر: **"أين يكمن الصدع؟ وعلى أي جدار هو؟"**[51]، ثمّ عقد العزم على المواجهة، والبحث الدقيق عن الأحداث المتوارية: **"سألعب دور المحقق من اليوم، وسألحق بكل حدثٍ يقودني إلى الماضي المفقود".**[52]

تثور نجلاء في هذا المونولوج على ذاتها كما تثور على الزمن في الوقت نفسه، الأمر الذي رتّب الزمن تعاقبياً، ورَبَطه بنسق الزمن السردي دون أن يُحدث خللاً في بنية النص الزمنية، حيث

أسهمتْ هذه المتوالية المونولوجية في نسج صورة مواجهة الذات لنفسها في المقاطع السردية بصورةٍ تلاحمية.

لم يكن الماضي المفقود سوى الذات نفسها؛ حيث الغموض والغيّبيّة والاستتار، تواجه الذات الزمن الحاضر مواجهة يصاحبها وعيٌ كامل بالفقد والانشطار، زمن الحاضر الأكثر جدلاً في المنجز السردي نتيجة إفرازات الماضي الدائمة والمستمرة، إذ إنّ "في مقابل النسيان الذي يساوي الفتور والنوم والانحلال والموت، هناك الذاكرة التي تعادل الوعي الذاتي".[53] من هنا، تحاول الذات الهروب من الواقع الذي يجسّده الحاضر إلى الماضي الغيبي للبحث عن هوية وجودها.

وتستمر الذات في مواجهة الزمن، والبحث عن هويتها في الماضي المستتر، في رحلة تشوبها روح الإصرار والتحدّي: "**تعمدتُ الكذب، فلن أُطلِعُ والديّ على نيتي، ولا عمّا يساورني حيال الحقيقة وبحثي عنها. فلو كانا يودّان مساعدتي لما ضللاني طيلة هذه السنوات لكن ليس بعد الآن، فلن أختبئ خلف ستار الخشية والجبن، وسأستعيد ما فقدت مهما كلفني الثمن**".[54]

تثور الذات على الزمن الحاضر بكل تمفصلاته؛ على الوالدين، وعلى نفسها وعلى الخشية والجبن والاستسلام، لتعلّق نفسها بالماضي الملغِز والمبهَم، الذي تقرر استعادته بصرف النظر عن العواقب.

يحضر الزمن هنا بوصفه زمناً ذاتيّاً، يبدو في حركة دائمة ومتواصلة، يسير بموازاة الذات ومعها، لكنه يفرض سلطته على الذات، فيحوّلها إلى ذات ثائرة مشتّتة لا تهدأ، تقف في مواجهة الماضي الذي تراه عميق المدى "**طيلة هذه السنوات**"[55]، الأمر الذي دفع بها إلى استخراج مخزون ذاكرتها إلى فضاء أوسع من بوتقة الماضي.

تحاول الذات التصالح مع نفسها، من خلال الإيمان بهواجسها ومشاعرها المنثالة عليها من الزمن الماضي، فتواجه الزمن، لتقشع غيمه وتكشف خباياه، وتواجه الآخر، لتعلن التمرّد عليه: "**تعمدتُ الكذب، فلن أُطلِعُ والديّ على نيتي، ولا عمّا يساورني حيال الحقيقة وبحثي عنها. فلو كانا يودّان مساعدتي لما ضللاني**"[56]، وتحاول في الوقت نفسه أن توسّع عالمها الضيّق من خلال مواجهة الزمن، وتجاوز ضعفها وجبنها، لتظهر بصوتٍ فضائحي يجسد حالة التغيير باتجاه الآتي، وهو ما يعكس بداية تكوّن الوعي لديها، وبداية رحلتها لاكتشاف هويتها.

لم تكن مواجهة الذات للزمن سوى حصيلة حاضرٍ مأزوم، فقدتْ فيه الذات هويتها وتوازنها النفسي، فتداخلتْ أبعاد الزمن لديها وتبعثرتْ، حتى تحوّلتْ إلى اللازمن، وما ذلك إلاّ انعكاس "للمتغيرات النفسية التي تحدث داخلها نتيجة إحساسها بالقلق من إيقاع الزمن"[57] الأمر الذي

دفعها إلى التمرّد على الحاضر الرتيب، والولوج في الماضي المجهول بصرف النظر عن ملابسات ذلك: "**وسأستعيد ما فقدت مهما كلفني الثمن**"[58]، ولم يكن ذلك سوى نتيجة الحاضر المؤلم والمرير، الذي تتخذ منه الذات موقفاً معادياً، فتصفه وتصف أفراده بالظلم والشبحية.

وتزداد وتيرة البحث عن الهوية من خلال مواجهة الزمن واكتشافه، ومواجهة الذات لنفسها، واستحثاثها لتحدّي الواقع: "**أشعر كمن تدور في حلقة مفرغة لا أعلم لها بداية ولا نهاية، ولربما كانت النهاية أمامي لكني أخشى اكتشافها، أو لست من تريد استعادة الماضي، لم أخاف من مواجهته إذاً؟ لن أفلح في تجاهله مهما أدرت له ظهري، سيذكرني به الصداع والكوابيس والتوءم الآن!! انتهى كل شيء، ودقّت ساعة الحقيقة، زيارة الطبيبة النسائية وجبتْ، سأواجه مخاوفي، وإن كان في الماضي ما يشين فسأطهره بحاضري وإن كان هناك ما يستحق العودة، فسأعود إليه، أيّاً كان ما تحمله تلك السنوات الست فإني سأكشفه حتى وإن لم أتذكره**".[59]

يَبينُ هذا المونولوج عن حالة الارتباك والذهول التي تعتري الذات لفقد هويتها؛ بدايةً من الرهبة من مواجهة الماضي، ثمّ لوم الذات لنفسها من استحضار هذه الرهبة، وانتهاءً إلى قطع هذا التشتت بالإزماع على مواجهة الزمن وكشف غموضه وفك تعقيده وتشوّشه، من خلال الاستعانة بالحاضر على تطهير دنس الماضي، أو استحضار الماضي وإعادته.

يعكس هذا الإصرار على الكشف عن المبهم والغامض حتى مع الخنوع لتعطّل الذاكرة وإخفاقها في استعادة الماضي، يعكس حالة اغتراب الشخصية عن ذاتها جرّاء الانسلاخ من الذاكرة، المفضي إلى الانتزاع من الحياة، كما يعكس في الوقت نفسه زمن الذات النفسي المشوب بالتشتت والقلق والغربة النفسية، الأمر الذي أفضى بالذات إلى الاكتفاء باكتشافه واستعادته حتى مع تعطّل تذكره، للوصول من ذلك كله إلى الاطمئنان النفسي والاستقرار الروحي الذي يحكمه الزمن.

تبدو الذات في هذا المونولوج، الذي يصور حال التشتت والتشظي التي وصلتْ إليها الذات، رهينة للزمن، تستجديه، وتستعطفه ليفتح لها مغاليقه وأبوابه المؤصدة ضد الذاكرة، ويحضر الزمن بوصفه زمناً نفسياً تعيشه الذات بغموضه وتشتته وبعثرته، ويكرّس هذا الزمن من حدّته لتستحيل "**السنوات الست**" إلى زمنٍ ممتد ترضخ فيه الذات لضياع وفقد هويتها في سبيل استعادة المسلوب، وتتشبأ فيه الذكريات والتذكّر، لينتهي الأمر بمعايير الذاكرة، بعد أن كانت متّكأً رئيساً للوصول إلى الاستقرار النفسي، إلى زاوية الإلغاء والإقصاء.

4. حضور الزمن وإيقاع الجنائزية

تستمر رحلة الذات الدؤوبة لاستعادة الهوية المتمثّلة في استعادة الذاكرة، ويستمر زمن الذات النفسي المتخم بالامتدادات القلقة، والمشبع بالعزيمة والإصرار على كشف المستتر في تصاعده، حتى وصلتْ الذات إلى مرادها، وكَشَفَ الماضي المستتر عن قناعه، فحضر الماضي بتفاصيله كافّة، وصاحب حضوره كشفاً لحياة أخرى، عاشتها الذات ومثّلتْ هويتها.

وقفتْ الذات وجهاً لوجه أمام الماضي المنشود، استعرض الزمن تفاصيله المتوارية، وأسفر عن ماضٍ معقّد، أعلنَتْ إثره الذات جنائزيتها: **"لم يخطر لي البتّة بأنها ستحمل لي ما أنهكني اللهاث خلفه ولم أجده. جاءتني بسنواتي الهاربة بذنبي الذي ما إن عرفته حتّى تمنيتُ وأدي معه"**.[60]

تواجه الذات الزمن الماضي الذي ظلّت تلهث خلفه لكشفه واستعادته، لتفاجأ بماضٍ محمّلٍ بذنبٍ منسحب من الذاكرة المنسية، ليعزف الزمن أولى إيقاعات جنائزية الذات **"حتّى تمنّيتُ وأدي معه"**.[61]

تواجه الذات الزمن، مواجهة يشوبها الاستسلام وتهيمن عليها مشاعر الخيبة، تشعر الذات بالحسرة على بعث الماضي وإحيائه، فتتمنّى الوأدَ معه، لتحدث المفارقة الزمنية، بين حاضر الذات المشوب بحماس اللقاء بالماضي أيّاً كانت تفاصيله، وبين الماضي المنكشف عن أحداثٍ وقفتْ الذات مشدوهة أمامها لتتمنى الموت معها، بعد أن أزمعتْ على مواجهتها بالتطهير المزعوم: **"وإن كان في الماضي ما يشين فسأطهره بحاضري"**.[62]

فرض الماضي بأحداثه وتفاصيله سلطته على الذات وعلى الذاكرة وعلى الحاضر أيضاً، أخفقتْ الذات في مواجهته، وخارتْ قواها إزاء هذه التفاصيل وتلك الأحداث، فتمنّتْ وأده من جديد ووأد نفسها معه.

تدخل الذات في صراعٍ مع الزمن؛ زمنها النفسي الذي يمثّل همّها الوجودي الحقيقي، والزمن الماضي المنكشف على الحاضر: **"تحاول الحياة أن تعيدني إلى روتينها، وأحاول أن أتناسى كل ما عرفت. أجبر نفسي على تناسي رغبتي بمعرفة تفاصيل الحقيقة، وأسقي فضولي مخدّر العقاب بإخراس حواسي الراغبة بالبحث والتنقيب عن هلاكها، من المضحك المبكي كوني أنسى ما أود تذكره وأكتشف ما لا يتمنى المرء أن يعرفه عن نفسه. بتُّ أخرس صوت رأسي كلما همّ باستعادة ما عرفه عن ماضيَّ"**.[63]

تعيش الذات حال من التشتت في مواجهة الزمن؛ حيث تدخل في صراعٍ معه في محاولة جاهدة لتجاهله ونسيانه، مع إصرار زمني على المواجهة والمحاسبة: **"تحاول الحياة أن تعيدني إلى روتينها، وأحاول أن أتناسى كل ما عرفت"**[64]، يستحيل الزمن هنا إلى زمن أبدي، تواجهه الذات وتتشابك معه؛ **"تحاول الحياة...وأحاول..."**[65]، ويحاول الزمن التجرد من دلالته

النمطية، ليبني أبعاداً انتقامية، تقوم على تكريس المعاناة والألم، من خلال الإصرار على العودة وترسيخ الوجود.

شكّل الزمن النفسي الداخلي للذات رافداً من الروافد المحركة لدينامية الزمن الخارجي، من خلال ربط التّواترات الزمنية المتدفقة، بصوت الذات السّاعي لتحقيق التوازن بين الزمنين المتدفقين، الأمر الذي أفضى إلى حالٍ من الهم الوجودي، وصورة من صور المأساة، انتهتْ إلى صراع داخلي تعيشه الذات وتواجه به الزمنين؛ الماضي والحاضر: "**أجبر نفسي على تناسي رغبتي بمعرفة تفاصيل الحقيقة، وأسقي فضولي مخدّر العقاب بإخراس حواسي الراغبة بالبحث والتنقيب عن هلاكها**".[66]

تواجه الذات نفسها، وتدخل في صراع معها، ذلك كله وسط إيقاعٍ جنائزي، استقطب ثيمات مجسّدة لتلك الجنائزية: "**أُجبر، أُسقي فضولي مخدّر العقاب، إخراس حواسي، هلاكها**".[67] انبثق هذا الصراع الغائر بين الذات ونفسها، من الصراع الأبدي بين الذات والزمن، الأمر الذي أفضى إلى اختلالٍ زمني أدّى إلى فقد الذات إحساسها بالزمن.

تعكس رغبة الذات في إيقاف الزمن وتجميده، والسعي للحدّ من تقدمه، ذاتاً عاجزة ومشتتة، تعيش في صراعٍ أبديٍّ مع الزمن؛ تنشده تارة، وتجاهد رغبة في إيقافه ووأده تارة أخرى، كما تعكس، في الوقت نفسه، وعي الذات بالمفارقة النفسية التي تعيشها إزاء الزمن: "**من المضحك المبكي كوني أنسى ما أود تذكره وأكتشف ما لا يتمنى المرء أن يعرفه عن نفسه**"[68]، الأمر الذي يكرّس من صراع الذات مع زمنها النفسي الداخلي، وصراعها مع الزمن الخارجي في الوقت ذاته.

استحال الزمن الماضي إلى زمن خارجي، بعد أن كان يمثّل الزمن النفسي للذات بتفاصيله كافّة، "ويشكّل هذا الانزياح أو الارتداد إلى الوراء مفارقة زمنية تعيد تشكيل الذات تارة، والزمن تارة أخرى حين يتضاءل في صورته الموضوعية الخارجية، وتصغر وحداته، ويمتد نفسياً ذاتيّاً إلى ما لا نهاية، وفقاً للحالة الشعورية المتدفقة التي تكتنف النص أو تكونه".[69]

أصبح الزمن يواجه الذات، ويرسّخ من وجوده وحضوره في واقعها الحاضر، ولم يستطع الزمن الحاضر مواجهة الماضي أو إيقاف تقدّمه، كما لم يتمكن من نزع القلق والتشتت من قلب الذات، الأمر الذي شكّل صراعاً خارجياً بين الزمنين تسرّب إلى داخل الذات ليخلق زمنها النفسي بصراعاته كافّة: "**بتُّ أخرس صوت رأسي كلما همّ باستعادة ما عرفه عن ماضيَّ**".[70]

يحتدم الصراع ويشتد بين الذات والزمن، فيفرض الزمن سلطته في محاولة منه للتمكن والهيمنة، في الوقت الذي تبدأ فيه الذات بالتراجع، فتقف موقف المراقب لهذه السلطة الزمنية: "**لم يكد الشهر يمضي حتى استيقظ الماضي من جديد، وكأنما يعاقبني على محاولة**

وأده بعد أن أثبت لي رغبته بالعودة للحياة، لكني لم أكن من أيقظه هذه المرة، بل كان القدر الذي أصرّ على جمعي به مرة أخرى".[71]

تراقب الذات الزمن وهو يستيقظ من جديد، لكنه هذه المرّة خرج ليحاسبها ويعاقبها على محاولة وأده، مع إلحاحه وعزمه على العودة للحياة، إنّه زمن ما قبل الاحتضار "بل هو زمن نفسي؛ حيث الصراع مع الزمن القصير والهروب من زمن الملوغة. ففقد الزمن معناه الموضوعي وأصبح منسوجاً في خيوط الحياة النفسية"[72]، يمعن في تكريس وجوده بتفاصيله المعقّدة والمقلقة، تقف الذات أمامه ليس لمواجهته كما في السابق، بل لمراقبته وهو يمارس سلطة وجوده، ويفرض حضوره المقلق عليها. وصل حاضر الذات إلى مستوى التبعثر والتشظّي، وفقدتْ الذات السيطرة على اتجاهات الزمن، فتحوّل الزمن إلى اللازمن، نتيجة التداخل بين بعديه الماضي والحاضر، حتى استحال إلى "زمن متداخل يسيل وتدور عجلته وفق الإيقاع الداخلي للذات"[73]، حيث هيمنتْ المفارقات على الزمن النفسي للذات، فتداخلتْ الأزمنة وتشابكتْ، وكذا سيطرتْ المواقف والمشاهد التي انتقل فيها الزمن إلى زمنٍ آخر، فبعد أن كان ماضياً مستتراً، صار حاضراً منكشفاً وعارياً، الأمر الذي أفضى إلى كسر خطّيّة الزمن، وانحسار الحدود الفاصلة بين أزمنة الذاكرة الموشومة بالعيي والإخفاق، وصهرها في زمن واحد هو زمن الذات النفسي الذي يختزل بداخله الأزمنة كلها بتعقيداتها وانكشافاتها وعراها المنفصمة.

ترفض الذات الحاضر، وتبقى رهينة الزمن، وبين الحالين تعيش مساحة من القلق والترقب في مراقبة الزمن، الذي يشكّل هاجساً يؤرقها بين الرغبة فيه والرغبة عنه. "وإذا كان الماضي يحضر كزمانية مأهولة بالقانون والسلطة والتاريخ، فإن تجربة الانكفاء في الحاضر تحضر كبحثٍ مضنٍ لتحرير الذات من سلطة هذه الخطابات التي تقوم على التحكّم والإخضاع".[74]

لم تفلح الذات في إيقاف الزمن فكيف بوأده، لذا حاولتْ التصالح معه رغبة في تجاوز ذل الماضي وعاره، اختارتْ الاستسلام والإذعان، والخنوع لقوته وهيمنته: **"سأبتلع ما عرفته، وسأنسى رغبتي في الماضي كما نسيته. كتب الله لي النسيان وما من خير في تحدّي القدر. سأعود لما كنت عليه طيلة هذه السنوات الخمس فما أخفاه الله عني لا يجب أن أبحث عنه فكل شيء يقدره الله لحكمة يعلمها هو وحده، وقد رضيت بحكمك يا ربي فطهرني واغفر لي خطيئتي".**[75]

لم يأتِ الزمن بما يسرّ الذات، أو حتى يريحها بعد مشقة البحث الطويل عنه، جاء بوثيقة تدينها على خطيئة كانت مستترة مع الماضي المجهول. تحوّل الزمن الخارجي إلى زمنٍ نفسي، فرضه الواقع على الذات، وأفضى إلى رفض الذات للواقع المحيط بها بتفاصيله كافّة، وهو رفض خلقَ لديها الشعور بالعجز والتشوّه. واستحضار الحوادث المفردة التي انقضتْ ومضتْ،

يُظهر لنا ببساطة أنّه مهما يحدث للذاكرة، فلا يتأثر محتواها تلك الحوادث بالتاريخ التي تحمله، إنها تبقى في طبقة عميقة من الذاكرة مكتسبة بذلك حالاً زمانية تجعلها بمثابة الآن الدائمة.[76]

تحوّلت الذات/نجلاء؛ فبعد أن كانت صوتاً مشبعاً بالثقة والإصرار على كشف المستور، تراجعتْ وتقهقرتْ، ليحل محل هذا الصوت صوتٌ جنائزي، تخنقه الرهبة ويشوبه الخوف، حتى الكلمات المدويّة، والحماس الملتهبْ، والتحدّي السافر، كل ذلك تحوّل إلى أصدافٍ فارغة تعكس حاضرها العاجز، لينتهي بها الأمر إلى العبور في مسار الانكفاء، ذلك المسار الذي "يقوم على الرغبة في التحرر من الماضي، إنّ الماضي بوصفه سلسلة من الإخفاقات تجسيد لاستعارة الثقل، ويكتسب مسار الانكفاء وظيفته داخل السياق، باعتباره عمليةً للتحرر من الثقل".[77]

أحدثتْ حركة الزمن وصيرورته حالاً من التحوّل والتغيّر في مكوّن الذات النفسي، فحركة الزمن من الماضي إلى الحاضر، ومن زمنٍ خارجي إلى زمن نفسي، مكّن الذات من إدراك ذلك التباين والتغيّر في الإحساس والشعور، الأمر الذي أفضى إلى واقعٍ للذات يحضر مجسّداً لأزمتها النفسية مع الزمن تجسيداً موضوعيّاً.

خلاصة

يحضر الزمن في المنجز السردي "الصابئة" بوصفه زمنَ البحث عن الذات، وعن الأمان، وعن الهوية، من هنا كان حضوره بوصفه زمناً نفسيّاً ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالذات، ودخل في نسيج حياتها، وتلوّن بتلوّن حالتها النفسية والشعورية، وتجلّى في تداعيات الذات، وذكرياتها، ومونولوجاتها.

تحوّل الزمن في النص إلى مادة تتشكّل بتشكّل الذات، وتتحوّل بتحوّلها، الأمر الذي جعل الذات تنجح في خلق وبعث وإثارة الزمن داخل نفسها، وفق طريقة خاصة خدمتْ النص بنائياً كما خدمته دلالياً. فالزمن لدى الذات باقٍ ومستمر، يصاحب استمراريته وعي تام بتحوّلاتٍ زمنية أبديّة، والوعي بهذا التحوّل الزمني يعكس مدى إحاطة الذات بالأبعاد الزمنية، وهي إحاطة استبطانية نفسية أساسها الإصرار والمناجاة، والتنقيب في الماضي المجهول الذي يقوم على أنقاضه الحاضر المتبعثر.

لم يكن الإحساس الذي يعتري الذات والمتمثّل في مشاهد التشويش والاضطراب من الواقع الحاضر سوى انعكاس لزمنٍ سيكولوجي مضطرب؛ فالهوّة الواسعة هي هوّة زمنية تتداخل فيها الأزمنة وتحيل إلى بعضها البعض، الأمر الذي يكرّس من هيمنة الزمن وتعسّفه. تدرك الذات أنّ العائق عائقٌ زمني، تتبعثر خلاله بين الماضي والمستقبل، إذ لم يكن حضور الماضي في أساسه إلاّ

غياباً، حيث يوحي هذا الحضور بالخلل والاندثار، وهو حضورٌ يعكس الواقع السيكولوجي للذات؛ الموسوم بالغموض والظلمة.

وتجدر الإشارة إلى أنّه وعلى الرغم من تحوّلات الزمن المختلفة، وعلى المفارقات الزمنية التي تضاربتْ في أولويات الحضور إلاّ أنّ حركة الزمن في الرواية اتسمتْ بالبطء الذي لا نكاد نحس معه بوجود نبضٍ للحركة داخل النص، ولعلّ ذلك يعود إلى كثافة حضور أشكال الحركة السردية التي أفضتْ بوقعها العالي إلى بطء الحركة الزمنية وتراخي وتيرة الحركة فيها.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

- القعود، حنان. الصابئة، الدمام: مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، (2018م).

المراجع:

- بحراوي، حسن. بنية الشكل الروائي، بيروت: المركز الثقافي العربي، (1990م).
- بنكراد، سعيد. السرد الروائي وتجربة المعنى، بيروت: المركز الثقافي العربي، (2008م).
- بو عزة، محمد. سرديّات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسة الاختلاف، الرباط: منشورات الاختلاف، (2014م).
- جينيت، جيرار. خطاب الحكاية: بحث في المنهج، ترجمة: محمد معتصم عبد الجليل الأزدي، عمر الحلي،
الجزائر: منشورات الاختلاف، ط3، (2003م).
- زعرب، صبحية عودة. غسان كنفاني: جماليات السرد في الخطاب الروائي، عمّان: دار مجدلاوي للنشر، (2006م).
- سعيد، ادوارد: تأملات حول المنفى، ترجمة: ثائر ديب، بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، (2004).
- الفريدي، بدرية عبد الله. بناء الزمن وتشكيل الخطاب في الرواية السعودية المعاصرة، الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، (2016م).
- قاسم، سيزا. بناء الرواية: دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (1984م).
- قصراوي، مها. الزمن في الرواية، بيروت: المؤسسة العامة للدراسات والنشر، (2004م).
- كيليطو، عبد الفتاح. العين والإبرة، ت: مصطفى النّحّال، القاهرة: دار شرقيات للنشر والتوزيع، (1995).
- مبروك، مراد. بناء الزمن في الرواية العربية المعاصرة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.

- ناجي، سوسن. الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، (2004م).

المقالات:

- الشوابكة، سمية سليمان. الزمن النفسي في رواية السجن السياسي (تلك العتمة الباهرة) أنموذجاً، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، عمّان، مج42، ع3، (2015م).
- مرتاض، عبد الملك. نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، الكويت، ع240، (1998م).

المراجع الأجنبية:

- Lubbock, Percy. Craft Of Fiction, London, Jonathan Cape Thirty Bedford Square,(1960).
- Meyerhoof, Hans. Time In Literature, University of California Press; Second Printing, edition (1960).

الهوامش:

[1] مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية، ص189.

[2] Lubbock, Craft Of Fiction, P43.

[3] قاسم، سيزا، بناء الرواية...، ص27.

[4] جينيت، جيرار، خطاب الحكاية...، ص45.

[5] القعود، حنان، الصابئة.

[6] الفريدي، بدرية، بناء الزمن وتشكيل الخطاب...، ص57.

[7] مبروك، مراد، بناء الزمن في الرواية...،ص15.

[8] المرجع نفسه، ص16.

[9] روائية وكاتبة سعودية، تكتب في جريدة الجزيرة. حصلتْ على جائزة الشارقة لإبداعات المرأة الخليجية فئة الرواية، عن رواية "الصابئة" 2019م. صدر لها: صَهْ مع خالص عتبي (نثر) ٢٠١٥، رَشْق (نثريات - إصدار مشترك)٢٠١٦ ، الصابئة (رواية) ٢٠١٨ م عن مركز الأدب العربي.

[10] القعود، حنان، الصابئة، ص12.

[11] المصدر نفسه، ص12.

[12] المصدر نفسه، ص12.

[13] المصدر نفسه، ص12.

[14] المصدر نفسه، ص12.

[15] ناجي، سوسن، الوعي بالكتابة...، ص12.

[16] القعود، حنان، الصابئة، ص14.

[17] المصدر نفسه، ص14.

[18] المصدر نفسه، ص14.

[19] المصدر نفسه، ص254.

[20] المصدر نفسه، ص254.

[21] المصدر نفسه، ص254.

[22] المصدر نفسه، ص.254

[23] المصدر نفسه، ص254.

[24] المصدر نفسه، ص255.

[25] الفريدي، بدرية، بناء الزمن وتشكيل الخطاب...، ص57.

[26] القعود، حنان، الصابئة، ص226.

[27] المصدر نفسه، ص226.

[28] سعيد، ادوارد، تأملات حول المنفى، ص253.

[29] المصدر نفسه، ص226.

[30] بنكراد، سعيد، السرد الروائي...، ص196.

[31] القعود، حنان، الصابئة، ص210.

[32] المصدر نفسه، ص210.

[33] المصدر نفسه، ص210.

[34] المصدر نفسه، ص88.

[35] المصدر نفسه، ص88.

[36] المصدر نفسه، ص88.

[37] المصدر نفسه، ص88.

[38] بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي، ص211.

[39] القعود، حنان، الصابئة، ص179.

[40] المصدر نفسه، ص179.

[41] المصدر نفسه، ص179

[42] المصدر نفسه، ص179

[43] المصدر نفسه، ص179

[44] المصدر نفسه، ص179

[45] المصدر نفسه، ص87.

[46] المصدر نفسه، ص87

[47] زعرب، صبحيّة، غسان كنفاني: جماليات...، ص62.

[48] القعود، حنان، الصابئة، ص87

[49] المصدر نفسه، ص87

[50] المصدر نفسه، ص87

[51] المصدر نفسه، ص87

[52] المصدر نفسه، ص87

[53] كيليطو، عبد الفتاح، العين والإبرة، ص64.

[54] القعود، حنان، الصابئة، ص88.

[55] المصدر نفسه، ص88

[56] المصدر نفسه، ص88

[57] المصدر نفسه، ص31.

[58] المصدر نفسه، ص31

[59] المصدر نفسه، ص184.

[60] المصدر نفسه، ص214.

[61] المصدر نفسه، ص214

[62] المصدر نفسه، ص184.

[63] المصدر نفسه، ص205.

[64] المصدر نفسه، ص205

[65] المصدر نفسه، ص205

[66] المصدر نفسه، ص205

[67] المصدر نفسه، ص205

[68] المصدر نفسه، ص205

[69] الشوابكة، سمية، الزمن النفسي...، ص786.

[70] القعود، حنان، الصابئة، ص205.

[71] المصدر نفسه، ص206.

[72] قاسم، سيزا، بناء الرواية...، ص77.

[73] قصراوي، مها، الزمن في الرواية، ص24.

[74] بوعزة، محمد، سرديات ثقافية...، ص97.

[75] القعود، حنان، الصابئة، ص190.

[76] Meyerhoof, Time In Literature, P72.

[77] بوعزة، محمد، سرديات ثقافية...، ص97.